العبيد...

قصة بقلم
حمد المحمدي

(تناول واقعي ، ومعاصر ، لتاريخ تلـك الصفوة المختـارة .. التي عرفت باسم : أهـل الكهف)

يقول الراوي :

فلما ان حط الطاعون فوق تلك المدينه الواقعة عند رأس الدلتا .. تنبأ شيخنا بما سوف يقع. قرر أن الوباء لن يبقي ولن يذر ، وان أقصى ما يطمح اليه ابن آدم هو ان تتاح له فرصة انقاذ بعض هؤلاء الذين قد يجتبيهم الله ، ويكتب لهم براءة الفرار من بين اسوار تلك المدينـــة المنكودة .

وعلى أساس هذا التصور ، وايمانا منه بأن الوقت كالسيف ، ان لم تقطعه قطعك ، ركب شيخنا الطيب أغلى الجياد في حظيرته العامرة ، وانطلق صوب هناك .

ولا يمكن التكهن بما حدث خلال ليلتين كاملتين ، غاب فيهمـــا الشيخ . ففي مساء اليوم الثالث عاد المبارك ، وبرفقته سبعة رجال !

كانوا في حال يرثى لها . وكانت عيونهم الوحشية ، وأنفاسهـــم الواهنة ، تقطع بان الشيخ قد عانى وكافح .. من قبل ان يستخلصهم . وانه لهذا السبب وحده ، بادر بادخالهم الى قصره ، ثم غلّق الابواب.

ومما لا شك فيه ، أن هذه كانت المرة الاولى والاخيرة ، التـــي استطاع فيها اي منا ان يرى هذه الجماعة الوافدة.ومنذ ان ولجوا أعتاب القصر .. تقطعت الاسباب والعلل ، التي كانت تصلنا بالشيخ . حتى أن اكثرية مريديه واحبائه ، قرروا ان زمان الوصال قد ولى .. من زمان وان علينا ان نحترم غربة الرجل وعزلته ، فلعله قصد بهما أن يقابل الله وجها لوجه ، بغير أن يكون عليه دين .. او قصاص . .

لكن الذي حدث ، بعد ذلك بسنوات ، بدا مفزعا ورهيبا . فقـــد فتح باب القصر على سعته ، وفي نفس اللحظة .. أطلت على الكـون بضعة وجوه شاحبة ، راحت تتشمم ريح الصباح بطريقة شائنة ، تماما كما لو كانت جائعة الى ذلك الهواء المتداوم ، الذي راح يعبث بالقمـم العالية لاشجار الكافور ، والذي تعودنا عليه في كل شتاء .

مع ذلك .. لاح الامر لنا ، وكأنه دعوة مجانية للدخول . ومن ثـم لم نضع الفرصة !.. هرع كل منا يسابق رفيقه ، ويناطحه . لكـن الحال لم يلبث كثيرا ، فعندما صرنا بالداخل .. تفرقت بنا السبل.راح كل منا يبحث بين الغرف والابهاء عن شيء مجهول الهويـــة والشكل ، لكـن رهيب .

كنا نشعر بالخطر القادم .

كنا نحس بطعم الكارثة ومذاقها المالح ، منذ تلك اللحظة الاولـى ، التي لم نشهد فيها الشيخ .. أو نسمع صوته .

وكان ما توقعناه !

رأينا الحسيب النسيب ، الذي تمتد اصول عائلته في غور الزمن الغـابر ، ممددا على فراش الموت البارد .

كان محتقن الوجه ، جاحظ العينين . وكانت جميع هذه العلامات المؤكدة .. تقطع بأن الشيخ قد أخذ غيلة ، واغتسافا .

.. فمن يا ترى فعلها ؟!

من ؟

لم ننطق بالسؤال ، لكن الجواب عليه جاء في نفس لحظة التفكيـر فيـــه .

تدافع كل فرد من أبناء تلك الجماعة الوافدة ، مقررا انه هـــو الفـاعل ، ولا أحد غيره !

كل منهم كان متشبثا بالجرم ، قابضا على موقفه . وفي أعينهم بدا اصرار غريب على السير بالامر حتى نهايته .

وعلى هذا الاساس ، ولما كنا نعرف ان الانسان لا يموت غير مرة واحدة ، بدأنا في محاكمة كل فرد منهم .. على حده !

❊

يقول أولهم :

كنا نعرف أن هناك شيئا ما نفتقده . كنا نحترق ذوبا اليه !

.. وفي ليالي القمر – ليل الصيف الدافيء .. كنا نرنو الـى السماء ، آملين أن نعثر فيها على كنزنا المفقود . لكن لا شيء !.. تظل السماء فقيرة ومجدبه ، الى آن يحل الشتاء . وحول موقد الدفء نجلس. نقرفص . ينكمش كل منا على ذاته ، راصدا انعكاس اللهب في العيون ، وارتماء الظلال المهلوب على الحوائط المقابلة .

وفجأة ، من خلال الاماني المحبطة ، والصمت المنهمر .. تبـــدأ لعبتنا الوثنية .

تتحلل النسوة مما عليهن من ملابس . تعلو ضربات الدف المجنون. تتلوى كل واحدة منهن ، وهي تموء . يعلو صوت الدف أكثر . يزداد التثني . يصبح دعوة صريحة ، وداعرة .. تلري .

مع ذلك ، يظل ذلك الجوع الغريب يأكل أحشاءنا من الداخل ،دون أن يجرؤ أحدنا على أن يحرر عينيه بعيدا عن ذلك الوعاء .. الذي تطرقع احطابه ، والذي تتناثر منه الشظايا على هيئة جمرات صغيرة ، لا تلبث كثيرا حتى تخمد وتستحيل الى رماد .

وينسل كل منا الى بعيد ..

يعبر البهو والظلام ، مخفيا أحزانه بين مقلتيه !

لكـن .. هل يفلح ؟

هل يستطيع اي منا أن يجد الحنان ، والامان ، وحق المهادنة ؟

لا أعرف !.. فما من مرة تمددت فيها الى جوار امرأتي ، شاعـرا بطراوتها ، الا وراودني ذلك الاحساس القاتل .. بأن هناك شيئا ناقصا ولا تكتمل الكينونة الا به .

كان ذلك المجهول يدهمني بطريقة مبهمة وغامضة ، من نفس اللحظة التي أهم فيها بغزو امرأتي . كان يقف في وجهي ويمنع عني حق التنفس، أو التوافق مع ذلك البدن الطري .. الذي يتمدد الى جواري ، دافئا ، وراعشـا .

وينشـال العـرق .

أشعر بالعجز ، وتدافع الانفاس . ولكي لا ترى امرأة هواني ومذلتي .. أهرب . أدير ظهري ، وأدفن رأسي بين الوسائد . لكنها ، ابدا ، لا تيأس .

ـ ألا أعجبك ؟

ـ ليس الامر كما تظنين !

ـ اذن ..

وأصمت .

أقبع منكمشا على نفسي ، حابسا انفاسي ، منتظرا بقية الكلمات.

ـ لماذا لا تسأل الشيخ ؟

ـ ...

ـ انه طيب ، ولديه الدواء .

ويدفعها الشبق ، والغبش الجاثم في الاركان .. الى التمادي

ـ قال الشيخ ان هذا شيء طبيعي هنا . وهو لا يستبعد ان يكون قد حدث للاخرين .. مثلما حدث لك !

ـ لكن احدهم لم يلجأ اليه . اليس كذلك ؟

ـ حتى الآن .. لا !

ومرة اخرى .. يطول الصمت .

ينقطع ذلك الجسر الذي قام بيننا لبرهة . وبدلا من المواء والرجاء.. اسمعها تفح .

ـ لو كان في هذا القصر رجل آخر لذهبت اليه . لكن ما فائدة ان احاول ، وهم جميعا خصيان ؟!

وأتضاءل .

أشعر بأنني ازداد ضمورا وتهافتا ، من انتظار الصاعقة .

لكنها ، دائما ، كانت تترفق بي كانت عند حد البكاء والنواح ، دون أن تفكر في العبور الى الجانب الاخر .

ويمضي الشتاء في اعقاب الخريف

وينكسر العام بعد العـام

ثم .. يأتي ذلك اليوم الذي تلغى فيه القاعدة .

ففي مساء الامس حاولنا ، وايضا .. فشلنا . وعلى الرغم من انني بذلت جهدي . وعلى الرغم من انها رأت قدر العناء الذي تكبدته .. الا انها سارت بالامر حتى نهايته .

نفضت عن جسمها الرائع جميع ما نفطت به ، ثم قفزت من دفء الفراش الى فراغ الحجرة .. عارية ، كما في لحظة الميلاد .

تأملتهـا !

رأيت ذلك الجوع الغريب يطل من عينيها ، فتمنيت لو نحـاول من جديد .

لكنها كانت قد اتخذت قرارها .

ـ اذا لم تذهب الى الشيخ فسوف أذهب أنا .

ـ لتسأليه ؟

ـ لا !.. لكي أحصل منه على ما لم احصل عليه معك .

ولم أتوان !.. هرولت الى الخارج ، والمرأة من خلفي .ومن خلال عريها وعريي .. أطبقت اصابعي فوق عنقه ، ثم لعبت معها لعبة الشبق.

نعم . أشعرتها بالشبع ، وفي نفس الوقت احسست بالارتواء !

*

وجاء الثـاني .

كان صوته مبحوحا ، مشروخا ، مكوى الايقاع !

وفي غير كلال او ملل ، وبلا أدنى تقدير لجميع تلك الوجوه التي تحلقت من حوله .. صار يخرج الانفاس من حلقه حارة ولاهثة ، شأن هؤلاء الذين عاشوا الحياة ، بعد ان وقر في قلوبهم أنها لا تعدو ان تكون رحلة طويلة .. على طريق الخلاص .

ومن ارتعاشة جفنيه ، واضطـراب حركتـه .. وعينـا جميعا على كثير من تلك الاسرار التي حاول أن يخفيها . ادركنا انه عـدواني النزعة والمشرب ، وان لذة الالم والايلام شيء كامن في طبيعته .. ولا يستطيع الخلاص منها .

حقا كان مصاص دماء . وكانت نزعته الوطواطية ذات طعم ودلالة، خصوصا وان كلا منا أسر الامر في نفسه .. ولم يحدث رفيقه بمـا وقـع عليـه .

وربما قيل اننا كنا نبالغ . وربما قيل ان الرجل لا يعدو ان يكـون احد دراويش الله ، الذين لا يقنعون من دنياهم بما نقنع به . وانـه (وربما كان هذا صائبا الى حد ما) كان عاشقا للنور ، طامعا فـي الخلاص من ماديته الثقيلة .

الا ان جميع هذه الحجج والتعلات تنهار من اساسها ، مع اول كلمة نطق بهـا .

قـال :

رأيت الله على وجه السماء !.. عرفته منذ تلك اللحظة الاولى التي اشرق فيها على عالمنا الواجف ، فآحال كل ما فيه الى بيار دافق من الدفء والعذوبة .

كان في ملكوته الكامل ، وكانت جوقة المنشدين والواصلين ترتل بين يديه ترتيلة الحمد والثناء .

كانوا بين يديه ، وكان بين أيديهم . تكنني ، وفي نفس اللحظـة التي هممت فيها بأن أغمر وجهي في كف يده الحاني ـ عرفت معنـى العجـز .

كان أمامي . وكانت روحي تعصر عن ان تطوله ..!

رغبت في ان أبكي . أنوح . أصرخ من خلال العالم الغافي طـالبا العون والمدد . لكن هذه الامنيات جميعا ذهبت سدى، حين ـ رأيته ـ سبحانه ـ وهو ينثال ويتباعد ، بينما صوته يدوي في مسامعي مثـل قرع الطبول :

ـ واذا سألك عبادي عني .. فاني قريب !.

درت حولي ، تطلعت ابحث عن بهاء . وفي النهاية .. عرفت معنى الظمأ ، فصرت اجري من خلال اشجار الكافور السامقة ، والحشائش الغافية . وكم كانت دهشتي بالغة .. عندما عثرت عليه مرة اخرى !.. كان ، هناك ، في ارتعاشة تلك الاوراق التي تتداوم مع نسمة الفجـر الواهنة . كان فوق الارض المخضلة بأمطار الليل ، والتي كانت تغنـي صلاتها بمنتهى الدعة والذوب !

كان رائعا وقريبا ، وعلى الرغم من ذلك .. استحال عليّ ان الحق بـه !

فلماذا ؟.. لماذا أهفو ، وارجو .. ثم اعجز عن الوصول ؟

لا بد أنني نجس . لا بد انني احمل فوق جلدي كثيرا من الادران والوسخ .

واذن ؟

اذن كان عليّ ان اتطهر !

ولم اضع الفرصة !.. هرولت عائدا الى حجرة الشيخ ، عارفا بما نويت عليه ، داعيا لجميع نتائجه . وهناك ، بعد ان اطبقت اصابعي

فوق عنقه الناصع البياض ، عثرت على طهارتي وبكارتي ، اللتين غابتـــا عني كل هذا العمر .

نعم . فعلتها ، ثم يممت وجهي نحو القبلة ، وفي نفس اللحظـة عرفت معنى انبثاق النور من الداخل .

أرجوكم !

أرجوكم الا تقرروا ان احدا غيري قد انجز المهمة ، لانكم ان فعلتم ذلك كنتم كمن يقرر انني ركعت لله دون ان اتطهر .. وهذه احدى الكبائر!

*

ويأتي الثالث .. نحيلا ، ضامرا ، ممصوص العود .

قـــال :

لم اكن وحيدا ،يوم ان طوح الوباء بكل ما هو جميل وطازج ..في مدينتي . ايامها ، كنت في السابعة عشرة . وعلى عادة جميع الرفاق، الذين هم في مثل سني ، اصطفيت لنفسي احدى بنات المدارس .. المكحولات .

كانت رائعة التكوين ، بالغة الرهافة والعشق .. خصوصا عندما يغوص الانسان في عمق عينيها ، ويتحسس شعرها الفاحم .

وفي اول ايام المحنة .. لم نبال . صرنا نخرج الى شاطيء النهر، نرقب اصطفاق المياه ، ونحلم !.. صرنا نجري . نعربد . نملأ الشوارع التعسة بطعم المرح الطـازج !

لكن ما بداناه لم يعمر طويلا ، فقد توقف كل شيء وفسد مذاقه ، في نفس اللحظة التي دنت فيها انبنت مني .. وتمسحت بي اكثر .

قالت ان امها قد اصيبت ، وانها تخشى العودة الى هناك .قالت ان الخواء بدأ ينتشر في البيت ويعشعش في زواياه ، وانها ـ لهـذا السبب وحده ـ تموت في اليوم الف مرة !

ولم أتكلم .

ظللت أصغي لها ، راصدا تلك النظرة المخبوءة في عمق مقلتيها.. حتى كفت . وحينذاك .. اخذتها تحت جناحي ، وبدأنا اللعبـة من جديـد .

عدنا الى جوب الشوارع ، وسماع اجراس العربات وهي تحمـل الموتى .. دون ان يفكر أي منا في ان الام ربمـــا كانت محمولة فـــي احداهـــا .

بغتة .. حدث ما لم يكن متوقعا !.. شحب وجه البنت ، وابيضت شفتاها ، وبدا واضحا انها تعاني .

وفي البداية .. خمنت انها جائعة ، وان عليها ان تحتمل . لكنني كنت واهما ، فقد تقلصت البنت في مكانها ، وهي تقبض على بطنها.. بينما حلقت عيناها في غور الفراغ البعيد ، تماما كما لو كانت تبعـث بصرخة احتجاج على هذه المعاملة المهينة ، التي تلقاها من ذلك المتربع فوق عرش العالم .

ولكن .. ما حيلتي ؟

كان عقلي مغبشا ، وركبتاي ترتعشان . ومن ثم ظللت ارقبها ..وهي تقيء !.. لكن لم يستمر كثيرا ، فحين رأيتها وهي تتهاوى .. اسلمت ساقي للريح .

وفي الطريق الى المحرقة ، حيث تلك الثغرة التي كنت ارصدها منذ يوم البداية ، ظللت اسمع صراخ البنت ورجاءها .

كانت تعوي وحيدة . وكانت ما تفتأ تردد تلك الكلمة اللعينـــة ، التي دأب العشاق ومدعو العشق على ترديدها جيلا بعد آخر .

لكن .. ما الفائدة ؟

نعم ، ما فائدة ان تبقى الى جوار جسد لم يجد الرحمة اوالحنان ممن خلقه ؟

ظللت اجري ، وعندما بلغت الثغرة .. عبرت من خلالها ،ورأيت الشيخ .

كان هناك ، راكبا فوق فرسه المهيب ، منتظرا كل من كتبت لـــه النجاة . لكنني حين هممت بأن احكي له عما حدث .. مد يده ،طـالبا الصمت .

قال ان هذا ليس زمن المكاشفة ، وان عليّ ان ارجيء الامر لحين العودة الى القصر ، فهناك سوف يصبح كل شيء ميســـرا .. ومرغوبا فيـــه .

كان مخادعا ، ومستبدا . فحين عدنا ، وحين اردت ان أبثـــه همي .. قال ان ما كان قد كان ، وان نبش الجراح ليس مستحبا فـي قصره الرائع .

هنا ، عرفت القانون . أدركت أننا ـ حين جئنا الى هنا باختيارنا الحر ـ لم يعد لنا الحق في الذكريات ، او المشاعر ، أو اي من تلك الاشياء المبهمة .. التي قد يلتذ الانسان يوما بمضغها .

وكان هذا اكثر مما احتمل !.. كان مخالفا لطبعي ، وتصوري لمعنى الحيـــاة .

وهكذا وجدت فتاتي القديمة ـ يمامتي .. تفرض نفسها عليّ من جـــديد .

ما من ليللة خلوت فيها الى نفسي الا ورأيتها تعبر من سماءالحجرة، بعد ان نبت لها جناحان رائعان .

كانت تحوم . تهمهم . وكان لغاها رائعا ، ويملأني بالذوب .

وفكـــرت :

لماذا لا ترتاح هذه ان الروح الطيبة ؟

لماذا كتب عليها أن ترحل من خلال الليل والعواصف .. حتىتصل الى غرفتي الرطبـة ؟

لا بد ان هنا شيئا ما يؤرقها .

لا بد أنها تريدني على ان احج الى قبرها ، فلعلني واجد هنـاك زهرة ، او ورقة خضراء .. تنبيء عن حجم الوله الذي امتلأ به قلـب البنت ، لحظة الفناء .

ولم أتوان .

هرولت الى الشيخ اطلب منه السماح لي بهذه الرحلة ،لكنهطوح برأسه مبتسما .. قبل ان ينطق :

ـ هل انت وثني ؟.. الحج يا بني غير جائز الا الى هذا القصر . هل تفهم ؟

واحنيت رأسي ..

ومضيت .

لكنني ، حين رأيت يمامتي في تلكالليلة ، ادركت ان ريشهـــا منتوف ، وانها مثلي .. تعارك البرد والشوق .

حينذاك .. طفح الوعاء ، وانسكب السائل . واصبح ضروريا ان يموت الشيخ .

وهكذا ، اطبقت اصابعي على عنقه الناصع البياض . فقط .. من أجل ان ينبت لليمام اجنحة !

*

ويأتي الرابع ..

يمشي بيننا بعيونه المجهدة ، وجسده المكدود ، وتلـك النظرات المذعورة .. التي لا تستقر عند شيء .

ومنذ البداية .. عرفنا انه لا يوجه الكلمات الى اي منا ، وانـه لا يفعل شيئا اكثر من كونه يمضغ عددا من الذكريات الغامضة ، التـي ربما كانت ذات دلالة خاصة ، وايقاع حارق .. بالنسبة له .

قـــال :

درست الفلسفة ، ومشيت حافيا في الطريق .

ولعلني كنت استمتع بجنوني ونزقي في تلك الايام البعيدة ، التي كنت أسير فيها على شاطيء النهر ، واعانق رياح الكون الاربع .

كان نديّ غنوة ، وفكرة . وكانت غنوتي وفكرتي تتناغمان تماما مع ما كنت اعتقده في نفسي ، وما كنت اتمناه لكل موجودات الكون .

لكن الطاعون ، الحامل معنى العجز ، احال كل ما آمنت به الـى عـــدم .

جثم فوق القباب ، والمآذن ، واطل من عيون الصغار ..
ملأ قلبي بالخوف الراعش ، واحال بياض العالم الى غبش وسواد.
وكان ذلك اكثر مما احتمل !

كان رهيبا ، ودامغا .. حتى انني لست واثقا من الكيفية التي خرجت فيها من بين الاسوار ، ولا الكيفية التي قبلت بها رفقة الشيخ.
فقط .. جئت !

وفي هذا القصر الرائع وجدت المرأة واللقمة ، وودعت عهد الترحال .

لكني ، وبمرور الوقت ، احسست بان ايقاع الغنوة اضحى سخيفا، وفي غير موضعه .

ترى .. ما الذي حدث ؟.. ما الذي فقدته ، وانا احيا في النعيم حتى يصبح كيان الغنوة جدارا يحول بيني وبين نزق الايام الماضية؟

أتعبني السؤال . جعلني اقضي الليل سائرا بين حجرات القصر وابهائه .. علني اعثر على جواب لهذه المعضلة .

كان شيئا رهيبا ، وقاسيا .. ذلك الذي عكفت على ممارسته ليلة بعد اخرى ، في اصرار لا يعرف المهادنة .

مع ذلك .. ما الذي حصلت عليه ؟

لا شيء !.. فقط ، كنت اسمع مواء النسوة اللابدات في احضان الرجال الاخرين . كانت الانفاس الملهوبة ، والانين المكتوم .. يعبران من خلال انحوائط والابواب فلا يزيداني الا احتراقا ، ورغبة في العثور على كنزي المفقود .

حتى كان ذلك اليوم المبارك ، الذي لم يكن يعني شيئا اكثر من كون عمري كله مركزا ، ومكثفا .. في لحظة واحدة .

كنت قد امضيت الليل ، كعادتي ، متنقلا بين الدهاليز والحجرات. وكانت قدماي الحافيتان قد تورمتا بفعل ذلك البرد الذي راح ينهمر على العالم .. في ليل ديسمبر البارد .

مع ذلك ، صعدت الى تلك الغرفة العلوية من القصر ، يدفعني شبق غريب الى متابعة بحر السحاب الاسود ، الذي يعبر من خلال السماء ، والذي كان على حاله .. منثالا ودافقا .

ومن هناك .. رأيت ذلك الكون الذي اوجده الله .

كانت جميع الموجودات تتحرك بعفوية ونزق، وكان الندى يتلألأ لامعا فوق نوار البرسيم بلون الابيض الداكن ، بينما نسمات الفجر الطرية تمضي واجفة ، وراعشة .. من خلال الرذاذ الهابط .

من بعيد .. لاحت بضع اشجار صفصاف عارية ، وساقية مهجورة ، وقط بري يجري وهو يفرق اعواد البرسيم ويستحم في امواهها المتناثرة من حوله .

فيما يبدو .. كان القط مصابا بالذعر .

كان ما يفتأ يتوقف مرددا البصر بين القصر والعالم الخالي ، المحيط به .

وفي كل مرة تطلع فيها الى القصر .. عاود الهرب ، وهو اكثر اصرارا ورغبة ..!

في تلك الاثناء .. تابعت اللعبة ، وانا لاه عن كل ما حولي ،اللهم الا التفكير في تلك الاسباب الخفية ، التي تدفع قطا له مثل هذه الشراسة والضراوة ، الى الخوف من قصرنا الرائع .

تلك كانت معضلة جديدة ، أضيفت الى متاعبي السابقة وتناغمت معها ، حتى انني تمنيت لو ان لديّ القدرة لكي اضحك منه وانا اراه يمضي الى حيث النخلة الوحيدة التي تشق الكون من اسفل الى اعلى، والتي راح يموء من تحتها دون ان يدري به احد.. اللهم الا رياح الشمال الباردة .

مع ذلك فقدت ، في اللحظة التالية ، اي شعور بالامان . فقد رأيت ذلك الكائن المشاكس وهو يمد نظره من بعيد ، عابرا به فوق الندى وغبش الصباح ، مستقرا على تلك النافذة التي انظر منها .

ولمدة برهة .. عضضت شفتي ، وهربت من وقع نظراته الحارق. لكنني عندما عاودت التدقيق رأيت انه لا يزال في مكانه ، وانني لا أستطيع ان افعل شيئا حيال الفعل الذي كان يغل وجودي ، ويحبسه في عيون كائن ليس لي به معرفة سابقة .

وعرفت ..!

كان القط يلعب معي لعبة القدرة وانعجز ، لعبة النزق والتروي، لعبة الشبع والجوع ..

كان هو ممتلئا حتى الثمالة . كان يعرف ان لديه حريته ، اما انا فجوعان اليها .

ولما كنت موقنا بالخسارة .. فقد آثرت الهرب .

قررت ان هناك ميدانا آخر ، استطيع فيه ان اكون الفارس ..دون ما خشيه من عيون تبرق وتتحدى .

ولم لا ؟.. في كل مرة مارست فيها مع زوجتي ذلك الامر المعتاد كان كلانا يغلق عينيه ، حابسا نفسه عن تلك النصيرورة التي قد ينز بها العالم في الخارج .

ربما كان هذا الفعل منا هروبا ، وربما كان خيانة لوجودنا المستهلك لكن ما الضرر ؟

ان تجربتي مع امرأتي تعطيني مبررا للقول بان الاحزان والمشاعر الدامية يمكنها ان تهمل لبضع لحظات ، خصوصا عندما يصل الفعل بيننا الى مرحلة لا يعود فيها للاعتبارات الانسانية اي قيمة او معنى.

وعلى ذلك ، ولكي احصل على وجودي المسروق ، قررت ان ادع القط ومواءه الاسيان الى حيث اجد امرأتي الملفوفة بالعطر والخضاب .

لكني بوغت ، ففي نفس اللحظة التي هممت فيها بالهرب ..وجدت المرأة تقف الى جواري . كانت هي الاخرى ترقب المشهد ، باحساس الظامىء الى وجوده المراق !.. وفي عينيها ، رأيت ان القط لا يزال يعدو الى بعيد ، بينما جسمه المبلل بالمطر ونظراته العفوية ..تتحداني، وتفرق وجودي في متاهات العجز .. بسؤال عاصف :

ـ وما فائدة ان تصبح فارسا ، فوق امرأة ؟.. العبيد ايضا يمكنهم ان يفعلوا نفس الشيء . هل تنكر ؟

وكان ما كان !

نحيت المرأة ، وجريت هابطا السلم . وعندما بلغت حجرة الشيخ.. أطبقت اصابعي حول عنقه . فقط .. من اجل ان تعود للقط نفس النظرات المهادنة ، التي كانت لذلك الكلب .. الذي قيل انه ظل باسطا ذراعيه بالوحيد .

*

يقول الراوي :

.. ورفضنا ان نستمع الى اكثر من ذلك !

كان قد تجمع لدينا اكثر مما نحتاج اليه من الكلمات المغلوطة، والاكاذيب المتعمدة .. التي تواترت الواحدة منها في اثر الاخرى ، كما لو كانت بضع تراتيل وثنية ، يؤدبها بعض المسوسين .

فقط .. تطلع كل منا الى رفيقه . دقق في عيون الاخرين ، باحثا، ومفتشا عن جواب لذلك السؤال الدامي :

اذا كان صحيحا كل ما قالوه . واذا كان صحيحا ان الشيخ قد سجنهم في القصر ، واحالهم بذلك الى جمع من العبيد .. فما الذي جعلهم يصبرون على الامر كل هذا العمر ؟.. ثم ، ما الذي رفعهم جميعا وفي ذات الليل ـ الى محاولة القصاص ؟

نعم . ما هي تلك الحادثة التي جعلتهم يتذكرون ـ فجاة ـ ان نشيد الحرية قد طال احتباسه .

القاهرة

أحمد المحمدي